

تكوين الشعب المصري الجديد

بعد الفتح العربي

بقلم جمال الدين الشيال

كان الجيش العربي الذي قام بفتح مصر يتكون من نحو اثني عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة . وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر في أفواج كثيرة متتابعة ، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس في سنة ١٠٩ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك ، وولاية الوليد بن رفاعه على مصر .

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتعل بالياسة العامة هشام في الدولة كلها ، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل النخبية بالاعلاء من مركز القيسية ، يقول الكندي إن عبيد الله بن الجحباب لما ولى خراج مصر من قبل الخليفة هشام كتب إليه يقول :

”إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحمى من قيس ونعمشهم ، ورفع من ذكرهم ، وإني قدمت مصر فلم أر لهم فيها حظاً إلا أحياناً من قيسم . وفيها كؤور ليس فيها أحد ، وليس يضر بأهلها فزولهم معهم ، ولا يكسر ذلك خراجاً ، وهي ببليس . فإن رأى أمير المؤمنين أن يزلها هذا الحمى من قيس فليفعل ، فكتب إليه هشام : أنت وذلك“ (١) .

ثم يذكر الكندي بعد ذلك أن هشاماً أرسل إلى البادية فاستقدم أربعائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة ، وأوفدها إلى مصر ، فنزلت بالحرف الشرقي حول ببليس .

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، طبعة جست ، ص ٧٦

” وأمرهم بالزرع ، ونظر إلى الصدقة من العشور
فصرفها إليهم ، فاشترىوا إبلًا ، فكانوا يحملون الطعام
إلى القلزم ، وكان الرجل يصيب في الشهر العشرة دنانير
وأكثر وأقل ، ثم أمرهم باشتراء الخيول ، فجعل الرجل
يشترى المهر ، فلا يمكث إلا شهراً حتى يُركب ، وليس
عليهم مؤونة في إعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم ،
فلما بلغ ذلك عامة قومهم تحمّل إليهم خمسمائة أهل بيت
من البادية ، فكانوا على مثل ذلك ، فأقاموا سنة فأتاهم
نحو من خمسمائة أهل بيت ، فأت هشام ويبيس ألف
وخمسمائة أهل بيت من قيس “ (١) .

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية
من عصر بني أمية ، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد وبمصر :
” ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم توالدوا ، وقدم عليهم
من البادية من قدم “ (٢) .

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة في العصور
التالية ، وخاصة في عصر الدولة الفاطمية ، ففي خلافة المستنصر مثلاً
عظم شأن القبائل العربية النازلة في جنوب الشام حول غزة ، وكثرت
ثوراتهم ، واشتدت وطأتهم على الولاة .

” فبعث الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن علي
اليازوري إليهم في سنة ٤٤٢ يستدعيهم ، وأقطعهم البحيرة...
فاتسعت أحوالهم ، وفخم أمرهم ، وعظم شأنهم ... “ (٣) .

(١) الكندي : المرجع السابق ، ص ٧٧ ، وانظر : المقرئ : الخطط ، طبعة النيل ،
ج ١ ، ص ١٢٨

(٢) الكندي : ص ٧٧

(٣) المقرئ : البيان والإعراب عن نزول بأرض مصر من الأعراب ، ص ٢٤-٢٥

ووفدت في نفس العهد قبائل أخرى ، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشعب والثورات ، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل - وخاصة قبيلتي بني سليم وبني هلال - إلى الوجه القبلي ، وبعد قليل عمل الوزير اليازوري على نقل بني هلال إلى شمال أفريقيا لدأبهم على إثارة الشعب ، ورغبة منه في الانتقام من بني زبري الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين في إفريقيا .

وقدمت قبائل أخرى في خلافة الفائز الفاطمي ووزارة الصالح الطلائع بن رُزَيْك ونزلت في منطقة دمياط والنيل ، ونزلت بطون من قبيلة جذام في منطقة زفتى وميت عمر .

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت في جهات أسفل الأرض (الوجه البحري) ، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد ، وانتشرت في جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها ، وفي منفلوط وأسيوط والأشوشين وإخميم ، وفي الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر ، وخاصة صحراء عيذاب .

وكان العرب في أول أمرهم جنودا يقومون بالفتوح في الأقاليم الخاورية ، أو بالدفاع عن مصر ، وكانت منازلهم في العاصمة (القسطنطينية) أو في الثغور كدمياط وتبليس ورشيد والاسكندرية ، أو على الحدود في الصحراء ، فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم اشتغلوا أيضا بالرعي على حافتي الوادي . ثم لم تلبث أن اجتذبهم الحياة في وادي النيل نفسه ، فأقبلوا عليه ، واشتغلوا بالزراعة ، واختلطوا بالأهلين ، وظلت للعرب هذه العفة - صفة الرعي أو الجنديّة - حتى كان عهد الخليفة العباسي المعتصم ، وكانت أمه تركية ، فاستكثر من الجنود الأتراك في عاصمة الدولة ، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كتيّدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧ - ٢١٩ هـ) .

” وأمره باسقاط مَنْ في ديوان مصر من العرب وقطع
أعطيّاتهم : ففعل ذلك ... “ (١)

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي ، ولما ولي
أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده
زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركي ، وأربعين ألف أسود ، وسبعة
آلاف حر مرتزق .

وباسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا في أنحاء مصر
وتم اختلاطهم بالأهالي .

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح ، يقول المقرئ :

” اعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها
مشحونة بالنصارى ، وهم على قسمين متباينين في أجناسهم
وعقائدهم : أحدهما أهل الدولة ، وكلهم روم من جند
صاحب القسطنطينية ملك الروم ، ورأيهم وديانهم بأجمعهم
ديانة الملكية ، وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومي ،
والقسم الآخر عامة أهل مصر ، ويقال لهم القبط . وأنسابهم
مختلطة لا يكاد يتميز منهم القبطي من الحبشي من النوبي
من الاسرائيل الأصل ، من غيره ، وكلهم يعاقبة ،
فمنهم كتاب الملكة ، ومنهم التجار والباعة . ومنهم الأساقفة
والقسوس ونحوهم ، ومنهم أهل الفلاحة والزرع ، ومنهم
أهل الخدمة والمهنة ، وبينهم وبين الملكية أهل الدولة
من العداوة ما يمنع مناكحتهم ، ويوجب قتل بعضهم
بعضاً “ (٢)

(١) الكنتى : المرجع السابق ، ص ١٩٣ ؛ والمقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ١٥١

(٢) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٢٩٢

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح ، أما القبط فكانوا عوناً للعرب ، وبعد الفتح كتب عمرو أماناً لبنيامين بطرك الأقباط ، فخرج من عينه في الصحراء ، وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاث عشرة سنة ، واعتبر الأقباط أهل ذمة ، وغرض على كل من بلغ الحلم ديناران (١) - ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ - ، وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أي شكوى نحو قرن من الزمان ، فلما فكر بعض ولاة مصر في زيادة مقدار الضريبة ولو زيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة ، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والتخف :

١ - ففي سنة ١٠٥ هـ كان الولاة على مصر من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف ، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الجحباب ، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتل الزيادة ، فزاد على كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو ، وشمى ، وقريبط ، وطراية) وعامة الحوف الشرقى ، فبعث إليهم الحر ابن يوسف بأهل الديوان (أى بالجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين ، وكان هذا الانتقاض في سنة ١٠٧ هـ ، وهو أول انتقاض للقبط (٢) بعد الفتح العربي .

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت في ضريبة الأرض لا ضريبة للرؤوس (أى الجزية) ، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطاً على كل دينار ، وقد تكون دعت إليها حاجة البلد ، كما أن عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تتحمل هذه الزيادة ، ومع هذا فقد ثار القبط في بعض الكور وفي الحوف الشرقى ، لأن المسائل المالية كانت دائماً - في كل العصور وفي كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب .

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ٨٧

(٢) السكيتي : الولاة والفتنة ، ص ٧٣-٧٤ ، والنفريني : الحفظ ، ج ٤ ، ص ٣٩٤

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك في بعض بلاد الصعيد ، وذلك في سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك ، يقول الكندي :

” ثم انتفض أهل الصعيد ، وحارب القبط عما لهم في سنة إحدى وعشرين ومائة ، فبعث حنظلة بأهل الديوان ، فقتلوا من القبط ناساً كثيراً وظفر بهم ... “ (١) .

ولكن الكندي لم يذكر سبب هذه الفتنة ، وإن كان المقرئ قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر وأيا للمرة الثانية تشدد على النصارى ، وزاد في الخراج ، وأحصى الناس والبهايم ، وجعل على كل نصراني وسما - صورة أسد - ، وتبعهم ، فن وجدته بغير وسم قطع يده ، فقد تكون هذه السياسة هي السبب في قيام هذه الفتنة .

٣ - وفي سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية أمام جيوش العباسيين فرّ إلى مصر ، وفي مدة وجوده بها ثار بعض القبط بمدينة رشيد ، فبعث إليهم مروان بعمان بن أبي نعدة فهزمهم (٢) ولنا نعرف أيضا سبب هذه الفتنة ، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التي صاحبت زوال دولة بني أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة .

٤ - وفي سنة ١٣٥ هـ في ولاية أبي عون من قبل العباسيين :

”خرج أبو مينا القبطي بممنود ، فبعث إليه (أبو عون) بعد الرحمن بن عتبة ، فقتل أبو مينا .. “ (٣) .

(١) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ٨١

(٢) المرجع السابق ، ص ٩٦

(٣) المرجع السابق ، ص ١٠٢

وليس في المراجع تعريف بشخصية أبي مينا هذا ، ولا ذكر لأسباب خروجه .

٥ - وفي سنة ١٥٠ هـ في ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤ - ١٥٢ هـ) من قبل الخليفة العباس أبي جعفر المنصور خرج القبط بمدينة صفا ، وانضم إليهم أهالي البلاد المجاورة ، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان ، ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية وخطرة ، فقد قتل في المعركة بعض قواد العرب ، وجرح البعض الآخر ، « وانصرف الجيش إلى النسطاط منهزمين » (١) .

٦ - وفي سنة ١٥٦ هـ ، في ولاية موسى بن علي على مصر من قبل أبي جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب ، فأرسل إليهم الوالي جندا هزمهم .

٧ - وفي سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحري) - عرباً وقبطاً - ، وكان سبب هذه الثورة كما يذكر الكندي « سوء سيرة العمال فيهم » (٢) وبذل الوالي عيسى بن منصور ، والقائد العباسي الأفشين جهدهما لانخضاع هذه الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور - من جمادى الأولى إلى ذي الحجة من سنة ٢١٦ هـ - حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلى مصر بنفسه لانخضاع هذه الثورة ، وأنخضعها وعاقب كلا من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما الوالي عيسى بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنته بقوله :

”لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك ،
حتمت الناس ما لا يطيعون ، وكنتموني الخبر حتى تفاقم الأمر
واضطربت البلد“ (٣) .

(١) المرجع السابق ، ص ١١٦-١١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٠ .

(٣) الكندي : الولاة والقضاة ، ص ١٩٢ .

أما ابن عيدين الشهير قائد الثورة من العرب فقد فرّ إلى الصعيد
لفظّره وقتل، وأما الثائرون من الأقباط « فزلوا على حكم أمير المؤمنين »
فحكّم بقتل الرجال ، وبيع النساء والأطفال ، فبيعوا ، وسي أكثرهم ... (١)
يقول المقرئ :

”ومن حينئذ ذلت القبط في جميع أرض مصر . ولم يقدر
أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان ، وغلبهم
المسلمون على عامة القرى ، فرجعوا من المحاربة إلى المكائنة
واستعمال المكر والحيلة ومكائنة المسلمين . وعملوا كتاب
الخراج ، فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة ... “ (٢) .

هذا موجز لأهم الثورات التي قام بها الأقباط في القرنين الأول والثاني
للهجرة ، وقد أخضعت كلها بالقوة ، وكان من أهم نتائجها جميعاً أن اعتنق
عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة - رغبة أو رهبة - .

وكان من الطبيعي - وهذه العوامل تعمل مجتمعة لادماج الشعبين
أحدهما في الآخر - أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليتمكن التفاهم
بين الحاكم والمحكوم ، وظل انتشار اللغة العربية بطيئاً طوال القرن الأول
للهجرة ، وقيل نهاية هذا القرن ، أي في سنة ٨٧ هـ (٧٠٥ م) وفي ولاية
عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر
بالدواوين « فنسخت بالعربية ، وكانت قبل ذلك تكتب بالقيطية » (٣) .

ففي القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية ،
وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ؛ ويرجع تاريخ
أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣ م) ، ويرجع

(١) الكنتي : الولاة والتفصاة ، ص ١٩٢

(٢) المقرئ : الخطط ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

(٣) الكنتي : المرجع السابق ، ص ٥٨-٥٩ ، وجاء في دائرة المعارف الإسلامية مادة

”ديوان“ ومادة ”قيط“ أن الدواوين في مصر كانت تكتب باليونانية لا القبطية .

تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩ م) ، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠ م) ، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩ م) .

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية في الدواوين ، والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية ، ظل هذا التحول يتم بالتدريج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠ م) كانت غالبية الشعب المصري يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية . بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا في هذا القرن أن يلقوا مواعظهم في الكنائس باللغة العربية .

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما ، بل لقد ظلت موجودة ، بدليل ما يذكره المقرئ من أن الخليفة المأمون كان ينتقل في ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه ، وما يذكره المقدسي في كتابه « أحسن التقاسيم » (ألفه حوالي سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحي مصر كانوا يتحدثون بالقبطية (١) .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية في هذا العهد الأول - عهد الاختلاط - ، يذكر الكندي أن القاضي خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠ - ١٢٧) كان « يسمع كلام القبط بلغتهم ، ويخاطبهم بها » (٢) ، كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، والى الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ) كان يتكلم القبطية (٣) .

وذكر البلوى في كتابه « سيرة أحمد بن طولون » أن ابن طولون تغير على أحد رجاله ، ففر منه ، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته في طلبه ،

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٨

(٢) الكندي : الرواة والقضاة ، ص ٣٤٩

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٣

وأوصاه أن لا يبحث عنه في داره بالقساطر ، ولا في ضيعته ، بل أمره أن يبحث عنه في « الديارات وعند النصارى ... لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها ، (١)

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التي انتهت بتكوين الشعب المصري في العصور الوسطى في النقاط الآتية :

١ - امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة ، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩ إلى سنة ١٣٢ هـ (أي من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد) ، وقبل نهاية هذا القرن أيضا (في سنة ٨٧ هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية .

٢ - ويمتاز القرن الثاني بشورات الأقباط المختلفة - (من سنة ١٠٥ إلى سنة ٢١٦ هـ) ، وكان من نتائج هذه الشورات دخول كثير من الأقباط في الإسلام .

٣ - وفي القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند ، ومنعت أعطيائهم ، فانتشروا في القرى المصرية ، واشتغلوا بالزراعة ، وتزوجوا من المصريات .

ففي هذا القرن تم امتزاج الشعبين .

٤ - ولم يكف يبدأ القرن الرابع حتى كان في مصر شعب جديد - هو خليط من الشعبين العرب والقبطي - يدين معظمه بالدين الإسلامي ، ويتكلم اللسان الأعظم منه - مملعين وأقباطاً - باللغة العربية .

ونستطيع أخيرا أن نفسر اندماج الأقباط في العرب ، واعتنائهم الإسلام بالأسباب الآتية :

(١) الطبري : سيرة أحمد بن منلون ، نشر محمد كرد علي ، ص ١٣٠-١٣١ .

١ - يقول ابن خلدون « المغلوب مولع دائماً بتقيد الغالب » ،
وهذه حقيقة ثابتة نراها في تاريخ الشعوب المختلفة ، فليس من البعيد
إذن أن يفكر بعض الأقباط في اعتناق الدين الإسلامي - دين الدولة
الحاكمة - ، وأن يتعلموا اللغة العربية - لغة الحكام - رغبة في أن ترتفع
مكائهم ويسهل اتصالهم برجال الدولة ، ويستمتعون بما يتمتع به المسلمون
من مركز مرموق .

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية ،
بل تغالوا فادعوا النسب العربي ، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب
في وثائق رسمية .

ذكر الكندي أن جماعة من القبط يسمون « أهل الحرص » سعوا لدى
قاضي مصر عبد الرحمن بن عبد الله العمري (١٨٥ - ١٩٤ هـ) ليُسجل
لهم سجلاً بآيات أنسابهم ، ودفعوا له ستة آلاف دينار ، فرفع العمري الأمر
إلى الخليفة الرشيد ، وسافر رجلاً من « أهل الحرص » إلى بغداد ، وأنتفا
هناك مالا كثيراً ، وادعوا أنهم ينسبون إلى حوتكة بن أسلم بن الحلاف
ابن قضاة ، وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد ، وول الخليفة
ابنه الأمين ، فرفعوا إليه قضيتهم ، وأيدهم في دعواهم جماعة من أهل الخوف
الشركي وبادية الشام .

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمري بالتسجيل لهم ففعل .
وقد ثار المجتمع العربي في القسطنطينية لهذه القضية ، وأعلن عن غضبه
على القاضي العمري في شعر كثير (١) ينتقد فيه حكم هذا القاضي ، ويظن
في قضاياه . ولم تبدأ ثورتهم حتى عزل العمري عن قضاء مصر ، ووليه
هشام بن أبي بكر البكري (١٩٤ - ١٩٦ هـ) من قبل الأمين أيضاً .

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للظن في حكم العمري ونسبة
« أهل الحرص » للعرب .

(١) أنظر هذا الشعر وتفصيل القضية في (الكندي: الولاية والقضاء ، ص ٣٩٧-٣٩٩)

” فكتب محمد الأمين إلى البكري بكتاب يذكر فيه
أنه لا يمنع أحدا من غير العرب اللحاق بالعرب ، ويأمره
أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم “ (١) .

فدعا البكري « أهل الحرم » ، وطلب منهم سجل قضيتهم الذي أثبت
فيه العمري أنسابهم ، ثم أخرج مقرضاً من تحت مصلاه فقطع السجل به ،
وقال لهم :

” العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض ، إن كنتم عرباً
فليس ينازعكم أحد “ (٢) .

٢ - كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى -
في المدن وفي القرى - ، غير أنهم أخذوا يدخلون في الإسلام ويتعلمون
اللغة العربية رويداً رويداً ، وخاصة بعد صدور الأمر بتلويين الدواوين
في مصر باللغة العربية ، وكان الدافع الأكبر لاقبالهم على اعتناق الإسلام
وتعلم اللغة العربية رغبتهم في الاحتفاظ بالوظائف التي يملكونها ، فقد روى
ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) أرسل
إلى مصر كتاباً يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن وظائفهم ما داموا على دينهم ،
ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل في دين محمد ، ولهذا سلم الأقباط
ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين (٣) .

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندي من أنه في خلافة عمر بن عبد العزيز
” نزعوا موازيت القبط عن الكور ، واستعمل المسلمون عليهم “ (٤) .

ومن البديهي أن نستنتج أن عدداً كبيراً من أقباط مصر قد دخلوا
في الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو العودة إليها
بعد تخليصهم عنها .

(١) ، (٢) الكندي : المرجع السابق ، ص ٤١٢-٤١٣

(٣) ساويرس بن المقفع : سير الأبياء البطارقة ، ج ٥ ، ص ٧١-٧٢

(٤) الكندي : المرجع السابق ، ص ٦٩

ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عاماً . أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات . بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيراً من وظائف الدولة ، بل لقد ظل بعض المرازيت يختارون من الأقباط ، فقد ذكر في إحدى الأوراق البردية المحفوظة في هيدلبرج .
والمؤرخة بسنة ١٧١هـ اسم مازوت قبطي (١) .

٣ - ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط في الإسلام - طوعاً أو كرها - ، وخاصة بعد الثورة الكبرى التي حدثت في عهد المأمون .

٤ - اعتنق بعض الأقباط الإسلام فراراً من الضرائب التي كانت مفروضة عليهم ، وقد يؤيد هذا أن أول انقراض للمقبط في العهد الإسلامي (سنة ١٠٥هـ) كان لأن عامل الحراج زاد على كل دينار قيراطاً .

ولم يكفد ينتهي القرن الأول للهجرة حتى أحس والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط في الإسلام من أثر في نقص قيمة الحراج ، فلما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب ابن شرحبيل يشكو كثرة دخول الناس في الإسلام ، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر في نقص قيمة الحراج ، ثم استأذنه في فرض الجزية على من أسلم ، فرد عليه عمر رده المشهور :

” قبَّحَ اللهُ وأبكَ ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ، ولم يبعثه جانياً ، فضع الجزية عن أسلم ، ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الإسلام على يدي ... “

٥ - وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يضوق الأسباب السالفة مجتمعة ، وذلك أن دخول الأقباط في الإسلام كان دخولاً طبيعياً ، يسير مع التطور المطلق للحوادث وللتاريخ في مصر بعد الفتح العربي ،

(١) سيدة اسماعيل الكاشف : مصر في نبر الإسلام ، ص ٢٠١

وأن الدين الإسلامي ببساطته وبساطه تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه ، يقول هذا الرأي شاهد من أهل الديانة المسيحية ، هو المؤرخ والمستشرق الإنجليزي المعروف « سير توماس أرنولد » ، فقد قال في كتابه « الدعوة إلى الإسلام » :

”والحق أن كثيراً من مسيحي مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التي اعتنقوا بها النصرانية في مسهل القرن الرابع الميلادي ... كما أن سرعة انتشار الإسلام في الأيام الأولى من الاحتلال العربي قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التي قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام .

وإن الأساس اللاهوتي لبقاء اليقويين حزباً منفصلاً ، والشعائر التي جاهدوا في سبيل الاحتفاظ بها وقتاً طويلاً ، ودفَعوا ثمناً غالياً في هذا السبيل قد اجتمعت في عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون عموضاً وإهاماً من الناحية الميتافيزيقية ، ولا شك أن كثيراً من هؤلاء قد تحولوا — وقد أخذت الحيرة منهم كل ما أخذوا استولى على نفوسهم الضجر والاعياء من ذلك الجدول السقيم الذي احتدم من حولهم — إلى عقيدة تنلخص في وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد“ (١) .

(١) توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم حسن وزميله) ص ٩٣-٩٤ .